

بيوت بغداد التقليدية (٢)

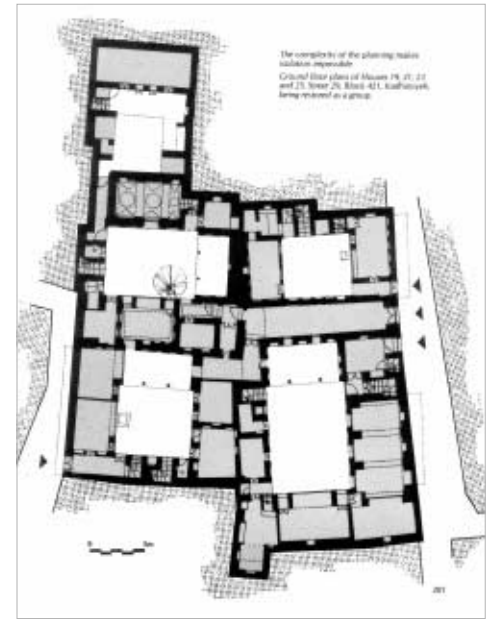
د. وليد احمد السيد

تكلّمنا في المقال السابق عن البيت البغدادي وأبرز الدراسات التي أجريت حول تطوره ونشأته تاريخيا، بالإضافة إلى لمحات من علاقة البيت بالمجتمع من ناحية وبالبيئة من ناحية أخرى. وكذلك تم استعراض آلية تكوين البيت العضوية من ناحية فراغية حيث تفترض الدراسات مركزية الفناء فراغيا من ناحية، واجتماعيا وتوظيفيا من ناحية أخرى. كذلك تتطرق الدراسات لتفاصيل شكلية المفردات معمارية نشأت وتطورت بمرور الزمن لتتعمد كمزوعات فراغية من ناحية وتلعب على البيت صفة وتوظيفية مرتبطة بهذا العنصر أو ذلك، وبرز التساؤل في نهاية المقال السابق حول دور كل من هذه العناصر وتوظيفها وفراغيتها ضمن التكوين العضوي للبيت بحيث لا تنتشر في الصياغة مفاهيم وأفكار مسبقة تعتمد الدراسات الوصفية

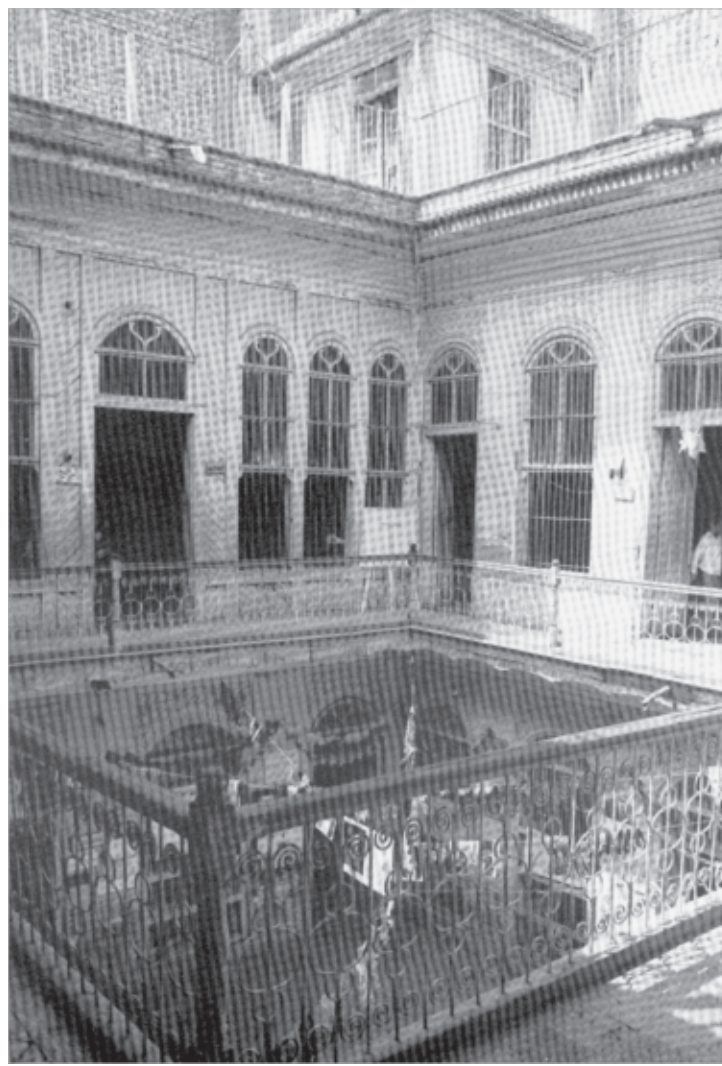
السائدة. ولا تخفى أهمية ادراك القيمة الفعلية لكل من العناصر الفراغية التي تشكل منظومة البيت الفراغية إذ أن من خلال ادراك هذه الآلية التركيبية للبيت كمنهجية اجتماعية يمكن فتح الباب على مصادره أمام الدراسات الاجتماعية، ودراسة علم النفس الاجتماعي، والدراسات المعمارية على المستوى الفكري التصميمي، بالإضافة لما يمكننا ذلك من ادراك سلوكيات وخصائص المجتمع التي يعكسها البيت، إلى غير ذلك مما له علاقة بعلوم الاجتماع أو مزيد من الفهم العلمي الواعي للتصميم المعماري وللمفكر الذي ساد في العمارة العربية التقليدية. وهنا يبرز تساؤل مهم حول الألية والنهج التي يمكن أن نتبناها كوسيلة لإجابة عن هذا التساؤل. وبكلمات أخرى: كيف يمكن لنا أن نفهم ما هو غير ملموس (الفراغ) من خلال نظرية أو وسيلة علمية لا تعتمد الألية الوصفية التاريخية كما هو سائد حاليا؟ وكيف لنا أن نفهم تركيبة البيت الفراغية وعلاقة

الفراغات كل بالأخرى؟ بالنظر في النظريات السائدة القديمة والحديثة التي تعالج مفهوم الفراغ الحضري كنظرية Rob Krier وغيرها، أو دراسات الفلاسفة مثل Roger Scruton حول ماهية الفراغ، أو العديد من النظريات المشابهة لمفكرين في إطار العنصر والتصميم الحضري أمثال Kevin Lynch أو Al-exander أو Rosie من درس الفراغ الحضري لاستخلاص مميزات وعناصر التشكيل المعماري والتي انعكست على مفاهيم التصميم المعماري من جهة، كما فتحت الباب أمام الاجتهادات المختلفة لتفسير سلوكيات معينة دون أخرى أو لتفسير منهجية تصميم دون أخرى وهكذا. أو لمحاولة فهم الألية الوظيفية التي تتفاعل بها الأنشطة والعناصر المختلفة داخل الفراغات الحضرية. ولعل ما لم تتمكن هذه النظريات من تحقيقه وهو إيجاد صيغة ممكنة لادراك الفراغات الحضرية بالنسبة لعلاقتها المختلفة بمنظومة واحدة لا كجزء متتابع كما يتم ادراكها بصريا لدى التجول ضمن الفراغات على المستوى الإنساني.

ويبدو مفيدا في هذا الإطار ما تقدمه واحدة من أحدث النظريات التي طورت مع نهاية الربع الأخير من القرن الماضي وهي نظرية Space Syntax وتعنى بدراسة وتقييم وفهم الفراغات لا لوجودها فقط، إنما بالنسبة لعلاقتها كل من هذه الفراغات لكافة الفراغات الأخرى ضمن المنظومة الفراغية للبيت أو للمدينة، ومن أبرز الوسائل وهي جميعها رياضية تعتمد المعادلات الرياضية وبطريقة منهجية منطقية علمية (راجع كتاب space is the machine: Bill Hillier, Cambridge University Press 1996 لفهم هذه النظرية التي لا يمكن بحال شرحها هنا أو استعراض تطبيقاتها)، من أبرز هذه الوسائل لتقنين الفراغ وفهمه هي القيمة التي تدعى (قيمة التكامل أو Integration Value) وهي يمكن من خلالها حساب قيمة فراغية رياضية لفراغ ما بالنسبة لموقعه ضمن المنظومة الفراغية ككل وكذلك بالنسبة لمقدار انفتاحه وتحكمه بالحركة من وإلى الفراغات الأخرى. ومن هنا فإن الفراغ المتوسط مثلاً ضمن منظومة ما يأخذ قيمة



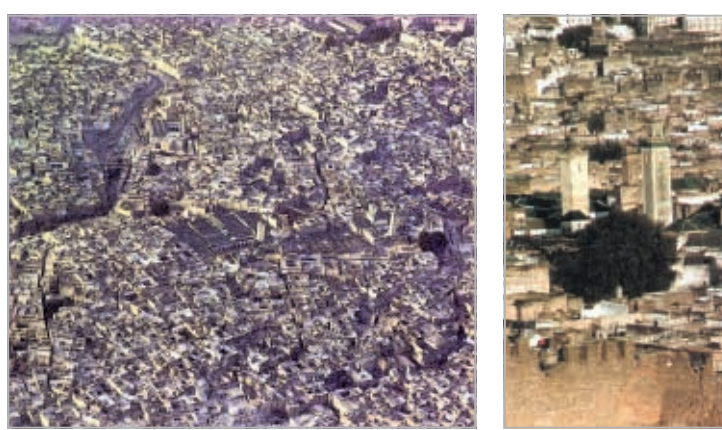
رقمية عالية شريطة أن يكون مفتوحا على ما حوله من فراغات وأن يكون حيويا في الاتصال مع بقية عناصر المجموعة الفراغية (من صقر فصاعدا وتعتمد هذه القيمة على عدد الفراغات ضمن المنظومة وعمق المستويات الفراغية المختلفة). من العام انتهاء بالمستوى الخاص). وتفسر هذه المستويات بأنها مقدار انتقال من فراغ لآخر والتي يتطلبها الوصول إلى فراغ ما ضمن المنظومة. وبالعكس يكون الفراغ المنخفضة مقارنة للفراغ الأكثر حيوية بالمجموعة وهكذا. ومن هنا يمكن النظر إلى هذه الفراغات بطريقة مجردة واستقراء ما تعنيه هذه الأرقام المجردة، فليس يعد من ذلك يمكن تسيير وتفسير الأرقام اجتماعيا حين يتم ربطها بالوظيفة التي يؤديها الفراغ، وأساقط مفاهيم الخصوصية والعلاقة بين الزوار والقاطنين والعلاقة بين الجنسين والعلاقة بين الكبار والصغار وهكذا. هذا على مستوى البيت الواحد، أما على مستويات أخرى فيمكن أن يتم عقد دراسة مقارنة بين بيوت من مناطق مختلفة بنفس الإقليم أو بيوت بمدن مختلفة بنفس الحضارة أو بيوت بمدن من حضارات وأزمنة متباينة وهكذا. وبعد هذه المقدمة للتعريف بالأدوات التي سنستخدمها للإجابة على تساؤلنا، عودا إلى موضوع تساؤلنا وهو البيت البغدادي. ومن أجل الإجابة اعتمدنا عينة من بيوت بغدادية تقليدية أجرينا عليها تطبيقات نظرية Space Syntax لتحليل قيم رقمية لكل من الفراغات التالية في البيت: الفناء والتارما والمطبخ والنوم والمدخل فوجدنا النتائج التالية: (نود الإشارة إلى أن القيم الرقمية التالية تمثل القيمة التكاملية المحسوبة بناء على معادلة رياضية تعتمد عدد الفراغات بالبيت وكذلك علاقة الفراغات بالأخرى ومدى انفتاحها ببعضها حوسبا لا بصريا. ومن هنا فإن القيمة الأقل والتي تؤول للبيت تكون أكبر بمعنى أن الفراغ يكون أكثر تكاملية وأهمية من حيث السيطرة في البيت بالنسبة لعلاقته بالفراغات الأخرى. وكذلك نود الإشارة إلى أن البيوت جميعها تحتوي أفقية).



مهمتين أخريين في البيوت ٣ والبيت ٧ حيث الفناء والتارما معزولين وليسا بالأهمية كما في بقية البيوت. هذه التحليلات تفتح الباب كما نذكر أمام دراسات اجتماعية جادة لفراغ البيت البغدادي البيئية والحضرية لا من خلال النظرة السطحية إنما تنظر للفراغ وتكويناته وعلاقاتها، وبذا تكشف أوجه التباين والتشابه بين ما يمكن أن يبدو متشابهة للوهلة الأولى، كما تبعد عن النظرات والدراسات العاطفية التي تميل إلى تبني وجهات نظر متحيزة. من القراءة الأولية أعلاه نلاحظ تبايناً بين البيوت البغدادية كمنهجية علمية لا تتعمد الألية الوصفية التاريخية كما هو سائد حاليا؟ وكيف لنا أن نفهم تركيبة البيت الفراغية وعلاقة

الداخلية المتفردة رغم سطحية قراءة التشابه الفراغي واحتوائها جميعا على مجموعة متشابهة من الفراغات الوظيفية. وسنكمل هذا النقض لدى استعراض مجموعة من البيوت في بلد عربي آخر في المقالات التالية. الصور من كتاب البيوت التقليدية في بغداد
walid_sayed1@hotmail.com

مدينة فاس (المغرب)



فناء ويقع على طابقين، وتشتهر فيها كذلك مدرسة العطارين والتي تعود للقرن الرابع عشر وتقع بالقرب من المركز الروحي للمدينة حيث جامع القرويين، وقد أطلق عليها هذا الاسم لوقوعها بالقرب من السوق التقليدي حيث تباع العطور والتوابل. وقد تم الاهتمام بالمدارس في المدينة من قبل السلاطين على مدى الفترات الإسلامية المختلفة لما لها من أهمية في تدريس المذهب السني في مواجهة المذاهب الصوفية المنتشرة آنذاك. وتعد هذه المدرسة من أشهر المباني في المدينة حيث صحنها المستطيل والذي يحاط بالأروقة بالإضافة إلى جمال تزيينها الهندسية الزخرفية البديعة الملوثة باستعمال الزليج.

أما جامع القرويين فيعد واحداً من أقدم الجامعات العالمية المعروفة وكذلك أضخم جامع في القارة الإفريقية على الإطلاق. وقد بنته السيدة فاطمة ابنة تاجر قيرواني من هاجر للمدينة في العام ٨٥٧ م. وقد نشأ كمجمع علمي حيث احاطت به المدارس، وغدا منارة رئيسية للعلم في القرون التالية على مستوى العالم القديم قاطبة، وتحتوي المدينة على جامع الأندلسيين الذي يشق اسمه سياسيا من مجموعة من المهاجرين من الأندلس في القرن التاسع الميلادي حيث استوطنوا الحي الذي يقع به الجامع. وهناك العديد من المباني ذات القيمة التراثية كقنطرة التجارين وغيرها مما تحفل به هذه المدينة العريقة. ومدينة فاس حظيت في العصور الحديثة بما تستحقه كمنطقة ذات تاريخ وسمة عمرانية متميزة من الدراسات والأبحاث ومحاولات الحفاظ الحادة، والتي لم يكن بالإمكان لهذه المحاولات إلا أن تنظر للمدينة ككل لا كجزء أو ميان. يضاف إلى ذلك أنها تشتهر بالحرف التقليدية المتوارثة عبر الأجيال وهي مما كان موضع اهتمام للمدينة بالإضافة إلى البيئة المجتمعية التي تشكل العمود الأساسي الخفي لهذه المدينة الخضرنة التي شهدت عصورا مجيدة من سيادة العلم في العالم العربي الإسلامي.

أخبار العمارة



اشتهرت مدينة فاس المغربية كواحدة من المدن التقليدية العربية الغنية بالتراث والمباني الأنيقة ذات الطابع المتميز. وتستخدم هذه المدينة ذات التاريخ العربي الإسلامي الطويل من طبيعة تكوين نسجها العمراني وكذلك من نمطية المباني إضافة إلى بعض المآثر المعمارية المتميزة الموروثة عبر فترات نمو المدينة الطويلة. وقد نشأت المدينة حوالي العام ٨٠٩ ميلادية من قبل إدريس الثاني الذي أسس المدينة، بشق قنوات المدينة المتفرعة من نهر فاس الذي يتخللها.

وقد نشأت المدينة بهجرة قبائل عربية مسلمة من مدينة القيروان التونسية في القرن العاشر الميلادي هربا من نزوح بعض القبائل البدوية. أما الفتحة الأخرى التي يعزى إليها تأسيس المجتمع الحضري بالمدينة فهم جماعة انتقلت من قرطبة بالأندلس بعد أن تم طردهم من قبل الأمويين أثناء الصراع مع الفاطميين. وقد سكت كل من هاتين القبيلتين على صفة من صفات النهر بالمدينة وأسهمت عبر الفترات التالية في جعل مدينة فاس واحدة من نقاط الإشعاع المعرفي والعلمي في العالم القديم، حيث اعتبرت عاصمة الإقليم آنذاك ولم يتخلل ذلك إلا فترات قليلة استولت فيها مراكش على هذه السيادة. ومن ناحية معمارية عمرانية تشتهر المدينة بنسجها العمراني الذي يسود في أركانها من مدن العصور الوسطى العربية الإسلامية حيث الشوارع والطرق الضيقة المتعرجة، وحيث القباب الرئيسية التي تتفرع حتى الطرقات الخاصة. أما عمرانيا فتحتوي العديد من المباني التي تنتج بين السكنية والخاصة والعام منها. فهناك مجموعة من البيوت التقليدية كبيت العلمي والذي بني في القرن السابع عشر والذي يتمحور حول فناء وسطي، وكذلك قصر الأزرق والذي يقع بالقرب من جامع القرويين ويحتوي شأته شأن البيوت التقليدية في فاس على

تشكل التفاصيل المعمارية جزءا من التصميم لا إضافة له. وفي هذا الإطار يحتوي المسجد تفاصيل خشبية ونقوشا نباتية على الأبواب والدك الخشبية. بالإضافة إلى التفاصيل المدروسة باستعمال الأقواس الحجرية أو الجصية في الفراغات الداخلية. ويذكر أن فراغ الصلاة الرئيس تم فرشها بقطعة سجاد واحدة مساحتها ٢٦٢ مترا مربعا إذ تبلغ أبعادها ٦٠ * ٧٠ مترا، فيما يبلغ وزنها ٢٦ طنا. كما أن حياكتها قد استغرقت أربع سنوات. كما تمت إنارة الفراغ الرئيس لمصلى الرجال باستعمال ٣٥ قطعة زجاجية تتدلى الترابي المركزية من القبة الرئيسية للمسجد بارتفاع ١٤ مترا ويقطر ٨ أمتار، وتحتوي على عدد من القناديل يبلغ ١١٢٢ قنديلا. أما الفكرة التصميمية التي كانت جزءا من العمل المعماري فيمكن تبينها من خلال العلاقة المدروسة المتوازنة بين الكتلة والفراغ وبين الداخل والخارج، وكذلك بين الألفية والعمودية لأجزاء المسجد. فمن ناحية الكتلة والفراغ نجد أن الكتل المكونة للعناصر المعمارية كمجموعة متكاملة تتراعى التدرج وإعطاء الهرمية الوظيفية مقابل الكتلة والشكل، حيث احتل الفراغ الرئيس للمسجد الكتلة المسيطرة للمجموعة، فيما احاطت به الكتل الخدمية الأخرى بما يتدرج ويناسب المقياس الإنساني. كذلك

مشروع الشهر

حيث يجسد المجموعة المعمارية التي تحوي المسجد كجماعة لا يمكن الصلاة والعبادة فقط، بل بعيد للمسجد دور التكامل في حياة المسلم كؤسسة جامعية أكاديمية تعليمية إلى جانب التعبد والصلاة، وذلك كما نرى في جامعة الأزهر والأمثلة العديدة من العمارة التقليدية. ويقع بناء المسجد الجامع على أرض مساحتها ٤٦٦ مترا مربعا. وتضم مرافق المسجد المهمة معهدا لعلوم الدين، بالإضافة إلى مكتبة وقاعات للدراس والمحاضرات. أما المسجد الرئيس وقاعة الصلاة فيبلغ من السعة بحيث يتسع لحوالي ٦٥٠٠ مصلا من الرجال وأيضا حوالي ٧٥٠ مصلية. ويلحق بالفراغ الرئيس للمسجد ساحات خارجية ومرافق خدمية. أما الساحات الداخلية والخارجية والأروقة فتتسع معا لحوالي عشرين ألف مصلا ومصلية، مما يدل على مدى ضخامة المسجد. وقد استغرق بناء وتنفيذ الجامع ست سنوات إذ بوشر بتنفيذ المسجد في العام ١٩٩٥ م، حيث تم اختيار الدكتور محمد صالح مكيه مع مجموعة Quad من لندن وتصميمه الفائز. ويعتبر البناء من التميز بما كان أنه يدوي - بالإضافة إلى تكامل الكتل وانسجامها هندسيا - تفاصيل دقيقة تتم عن متابعة وتمحيص من قبل المعماري المصمم، وهي من أبرز خصائص أسلوب الدكتور محمد مكيه حيث

الجامع الكبير بمسقط (عمان)

